

## مفردات التشكيل المعماري الإسلامي

د / عبد الباقي إبراهيم

كبير خبراء الأمم المتحدة للتخطيط العمراني

سابقا

تختلف مفردات التشكيل المعماري الإسلامي وأسسها باختلاف المكان والزمان . وتظهر الملامح التقليدية للعمارة الإسلامية فيما أفرزته فترات الحكم الإسلامي من تشكيلات وعناصر معمارية مثل العقود والأبنية والقباب والمشربيات وملاقف الهواء وزخارف هندسية ونباتية وما عبرت عنه مواد البناء المحلية من تشكيلات فنية خارجية وداخلية . ومع اختلاف حرفية البناء على مر العصور ومع التأثير المتبادل بين حضارات العالم الإسلامي ومع العصور الحضارية لكل مكان . فقد نتج عن كل ذلك حصيلة إبداعية زاخرة من العمارة الإسلامية المعبرة عن المكان والزمان .

وإذا كان المضمون الإسلامي هو الموحد لهذه العمارة في مواطنها المختلفة فإن إختلافها التشكيلي يرتبط بمنبع هذه العمارة بيئيا وحضاريا ... ومع التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي شهدتها أقطار العالم الإسلامي إنحرفت بعض المضامين عن مساراتها الإسلامية حتى أصبحت العمارة في بعض العصور تنبع عن رغبة خاصة في التظاهر بعظمة الحكم الأمر الذي أخرج بعض المضامين الإسلامية في التصميم عن مسارها الإسلامي الصحيح . وخرج المسجد من النسيج العمراني للمدينة الإسلامية ليحتل مكانا بارزا بصريا على قمم التلال أو على الميادين العامة أو عند تقاطع الطرق . وكما خرج المسجد عن النسيج العمراني خرج عن النسيج الاجتماعي للمدينة وإنحسرت وظيفته في أداء الصلاة وفقد وظيفته الاجتماعية والثقافية والحضارية . وبالمثل إنحرفت العمارة السكنية عن خصوصيتها الاجتماعية . وإمتد التفاخر والتظاهر والخيلاء إلى العمارة الرسمية وهكذا إختل التوازن الإقتصادي والاجتماعي في العمارة بعيدا عن منهج الوسطية الذي كان يحكم العمارة والعمران في العصور الإسلامية الأخرى . وهكذا ترتبط مفردات التشكيل المعماري الإسلامي بالمنهج الإسلامي أكثر ما ترتبط بالشكل الظاهري . وإن كانت القيم التشكيلية في العمارة الإسلامية هي تعبير عن التقدم العلمي والفني والثقافي للمجتمع ولكن بالقدر الذي تحدده القيم الإسلامية في الوسطية دون إسراف أو تقتير . وللفرق ماشاء في الداخل أما في الخارج فهناك محددات إجتماعية لا بد وأن ترضى عليها جماعة من المسلمين الأمر الذي يؤكد التوازن بين الظاهر والباطن والداخل والخارج .

جاءت مفردات العمارة الإسلامية التقليدية تعبيراً طبيعياً عن أسلوب التعامل مع الخصائص المناخية للمكان كما أنها جاءت أيضاً معبرة عن أسلوب البناء المتوافق مع الامكانيات الحرفية ومواد البناء المتاحة في نفس المكان مع الارتباط بالقيم الثقافية والقيم الاجتماعية الإسلامية السائدة في ذلك الوقت. وإذا كانت المفردات المعمارية الإسلامية المتعارف عليها قد ظهرت في فترة محددة من التاريخ الإسلامي الممتد الى ما شاء الله وفي منطقة محددة من العالم الإسلامي الممتد الى اطراف الارض , فإن المتغيرات في أساليب البناء المتوافق مع الامكانيات المعاصرة ومواد البناء الجديدة والمتاحة في نفس المكان مع الارتباط بالثوابت الثقافية والاجتماعية للدين الإسلامي سوف تفرز للعمارة المعاصرة مفردات جديدة تعبر عن المعاصرة المتمثلة في مواد وأساليب البناء الجديدة والأصالة المتمثلة في القيم التراثية المتوارثة والقيم الاجتماعية للمجتمع الإسلامي . وإذا كنا نعرض هنا لمفردات التشكيل المعماري للعمارة الإسلامية التراثية فان ذلك لا يعنى بالضرورة اعتبارها من مكملات العمارة الإسلامية المعاصرة بقدر ما هي تعبير عن المعطيات الحضارية في مكان محدد ولفترة زمنية محددة التزم فيها المجتمع بقيمه الإسلامية الصحيحة . من هنا فان تناولنا لموضوع العمارة هنا لا يأتي من مفهوم العمارة الإسلامية بتعريفها التقليدي الذي قدمه المستشرقون وأتباعهم من الباحثين والدارسين ولكن من منطلق مفهوم العمارة في الإسلام . وهناك فرق شاسع للتناول في الحالتين . وإذا كان المجتمع الإسلامي المعاصر قد فقد كثيراً من خصائصه الثقافية والاجتماعية بسبب الهجمة الشرسة للحضارة الغربية , فلا ننسى أن العمارة الإسلامية الذاتية قد تأثرت بحضارات مختلفة في زمنها وهي لم تنبع خالصة من المكان المحدد والفترة الزمنية المحددة بل جاءت نتيجة للتفاعلات الثقافية بين الحضارات في هذه الأزمان البعيدة . فمفردات العمارة الإسلامية التركية انتشرت في بلدان العالم العربي مع الفتح العثماني لها . وها هي عمارة مسجد محمد علي بالقلعة ومآذن مسجد سيدنا الحسين بالأزهر تعبر عن هذا التأثير الثقافي للحضارة التركية في تلك الأزمنة . وها هي مفردات مسجد أحمد بن طولون بالقاهرة تعبر عن التأثير الثقافي والحرفي لعمارة العراق شرقاً .. كما أن العمارة في العراق قد تأثرت بالتالي بالعمارة الفارسية والهندية شرقاً .. وعلى الجانب الغربي للعالم الإسلامي نرى مدى التأثير المتبادل بين الحضارات في شمال أفريقيا والأندلس بأسبانيا . وهكذا الأمر الذي يؤكد الاستمرارية الحضارية للإسلام وانعكاسها على المفردات المعمارية على مدى العصور والأزمان مع اختلاف المكان بخصائصه الثقافية والطبيعية وثبات مضامينه الإسلامية بنسب متفاوتة بين دولة وأخرى .

ان دراسة المفردات التشكيلية للعمارة الاسلامية يأتى من منطلق التعرف على التراث وتحليله واقتباس الثوابت منه والتحرك به مع الزمن والمتغيرات . لقد أفرزت العمارة الإسلامية في القاهرة مفردات معمارية ارتبطت بالتراث الحضارى للمكان وبحرفة البناء بالحجر والخشب وهو ما ظهر في تشكيلات الحوائط الخارجية الداخلية وفي المآذن والعقود والقباب في عمارة العصور الاسلامية التي مرت بالقاهرة , كما ظهر في اعمال النجارة في المشربيات والابواب الداخلية والخارجية , فقد جاءت هذه المفردات معبرة عن الخصائص الحضارية للمكان الذى نبعت منه . وإذا انتقلت بنصوصها الى أماكن أخرى مثل جدة في الحجاز أو دبي في الامارات أو دمشق في سوريا أو الرباط في المغرب في الماضى أو الحاضر فقدت ذاتها وظهرت غريبة عن المكان وعن الزمان أيضا .. وهكذا مفردات العمارة المغربية تظهر غريبة عن المكان والزمان إذا ما انتقلت بنصوصها خارج المنطقة التى نبعت منها اللهم الا بهدف التجميل لبعض الفراغات الداخلية .. كما أن القباب والأقبية التى أفرزتها العمارة المحلية في جنوب الوادى في صعيد مصر تبدو غريبة عن المكان والزمان اذا ما زرعت في الكويت التى لها مفرداتها المعمارية التراثية النابعة من حضارة المكان والزمان .

ولما كانت العمارة هى افراز حضارى للمجتمع في مكان ما وزمان ما .. بالتالى فان مفردات التشكيل المعمارى تخضع لهذا المبدأ . فقد امتزجت حرفة البناء بالصانع والبناء وصاحب المبنى وتفاعلت هذه العناصر الثلاثة معا لتفرز هذه الابداعات الفنية من المفردات المعمارية , الأمر الذى لم يعد قائما بعد أن انفرط عقد الثقافة الاسلامية العربية أمام الهجمة الثقافية والاقتصادية الواردة من الغرب فقد أصبح من المتعذر جمع العناصر الثلاثة المتمثلة في المعمارى المصمم والمقاوم المنفذ وصاحب المبنى على وحدة فكرية مشتركة حتى أصبحت كتب العمارة الغربية المصورة مثل كتالوجات موضة الأزياء الباريسية تتناولها الأيدى العربية للإختيار والانتقاء بعيدا عن الابداعات الفنية التى تركتها الحضارة الاسلامية على مر العصور السابقة في الأزياء أو في النسيج كما العمارة ومفرداتها التشكيلية .... وأصبحت الدعوة الى الاقتباس من المفردات التشكيلية التراثية مجردة عن المضمون بقدر ماهى محاولة للتمسح بالماضى أو التظاهر بالاصالة مع ان بعض أصحاب هذه الدعوة لا يزالوا يلبسون أربطة العنق التى لفها الغربيون حول أعناقهم دون منطلق أو مبرر .. ودخلت البدلة المجتمع العربى في عهد اسماعيل باشا في مصر تقليدا للغرب وتمسحا به مع أنها لا تناسب حركة الانسان العربى في مجلسه وفي حركته .. فى الموضوع .. وفى الصلاة . وفى المناخ الذى يعيش فيه .. والعمارة كغيرها من المكونات الحضارية لا تنفصل عن غيرها من المكونات المتمثلة فى الملابس واللغة ومختلف الفنون .. وعندما يستسلم الانسان العربى

لهذه الأوضاع لا يرى أمامه إلا الدعوة العالمية مخرجا له دون الجهاد في سبيل آثره خصائص الحضارة الإسلامية العربية.. هذا مع العلم بأن النظرية المعمارية الإسلامية هي نظرية عالمية لكل زمان ومكان أكثر منها نظرية محلية نبعت في مكان معين وزمان محدد . هي نظرية تعمل على التعامل مع المتغيرات لكل زمان ومكان كما تعمل على التعامل في نفس الوقت مع الثوابت الفكرية والاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الإسلامي الذي لا يتغير بتغير المكان والزمان , هي نظرية تعمل على احترام القيم الاجتماعية في التشكيلات المعمارية الخارجية واحترام القيم الفردية في التشكيلات المعمارية الداخلية , هي نظرية توازن بين القيم الاجتماعية الثابتة والمتطلبات الفردية التي تختلف باختلاف القدرات المادية والثقافية .. هي تعبير صحيح لمنهج الوسطية .. من هذا المنطلق فإن ثبات المفردات التشكيلية للعمارة من الخارج ترتضيه جماعة المسلمين .. ليس بالضرورة أن تثبت في العمارة الداخلية وهي هنا تماثل الأزياء الموحدة للمجتمعات في شبه الجزيرة العربية أو في باكستان أو في نيجيريا أو في المغرب العربي باعتبار الملابس بمثابة العمارة المباشرة للإنسان وإن اختلفت في الملمس أو الخامة فهي واحدة في الشكل والمضمون .

وتختلف المفردات التشكيلية في العمارة الإسلامية من مفردات تشكيلية تؤدي وظيفة عملية مثل المشربية أو العقد أو القبو أو القبة .. أو الأثاث الداخلي أو الأبواب والنوافذ أو السبيل والنافورة أو المقاعد الثابتة أو الأسقف المائلة في المناطق الممطرة أو في الملاقف العلوية المربعة في المناطق الحافة أو الملاقف العلوية المربعة في المناطق الرطبة ... ومفردات تشكيلية تؤدي وظيفة تجميلية مثل التشكيلات الهندسية أو الزخرفية أو المقرنصات أو أنواع التكسيات الخارجية والداخلية من فسيفساء أو قيشاني ومواد فخارية ملونة أو أخشاب , وهي في وظيفتها التجميلية تثرى الوظيفة العملية وتزيد من قيمتها الإبداعية والفنية , وهكذا تجمع المفردات التشكيلية بين الوظيفة والفن في صيغة متكاملة كما تجمع النهج الإسلامي بين الماديات والمعنويات في صيغة متوازنة وبهذا المفهوم تصبح المفردات التشكيلية في عمارة المسلمين على مدى الزمان وبعد المكان صيغة متكاملة تجمع الوظيفة والفن معا كتعبير للإصالة التي تمتد للمعاصرة .

وهكذا يعالج موضوع المفردات التشكيلية في العمارة الإسلامية بالمنهج البحثي الذي يجمع الأصالة بالمعاصرة المرتبط بالقيم الإسلامية أكثر منها عرضا أثريا لتطوير هذه المفردات على مر العصور وفي مختلف الأمصار الإسلامية . وهكذا يعالج موضوع المفردات التشكيلية في العمارة الإسلامية في إطار المنظور الإسلامي للنظرية المعمارية .